أزمة التجريب في الخطاب النقدي العربي الحديث

عبد الواسع الحميري*

غير خافٍ على من يتأمل واقع التجريب النقدي الحديث، ما جرّه هذا الواقع على حركة النقد العربي الحديث من مآسٍ وويلات، ليس بأقلها ضياع هوية النقد ذاته، وغياب المفهوم الجامع أو المحدد له.

فعلى الرغم من شيوع مصطلح «النقد»، وكثرة تداوله في السوق الثقافية الاستهلاكية العربية، إلا أنه قد ماع أو كاد يتبدد تماماً في خضم هذه الكثرة الكاثرة من المناهج النقدية التي صارت من الاشتجار بحيث لم نعد قادرين على التمييز بين منهج وآخر؛ ففي خضم الكثرة تتبدد الوحدة، كما يقال، ما يجعل من إعادة طرح سؤال الماهية، في مثل هذا السياق، بمثابة الدعوة إلى "الجمع في التفرقة" حسب التعبير الصوفي، أعني بمثابة الدعوة لأن يكون لنا -على الأقل نحن المهتمين بقضايا النقد- مفهوم جامع، نجتمع حوله، ونلتقي عنده؛ كونه ينطوي على أهم المقومات التي لا يكون النقد نقداً إلا بها، أو كونه ينطوي على ما يمثل شرط التسمية؛ تسمية النقد نقداً؛ فنحن نعلم أنه إذا اختل شرط التسمية اختل شرط المسمّى؛ فنحن لا نطلق اسم الشيء على الشيء إلا لأن هذا الاسم قد حمل -على الأقل في وعينا اللغوي التقليدي- بعض خصائص مسماه. إلا أن نذهب مذهباً أبعد مما ذهب إليه دي سوسير، فنقول باعتباطية العلاقة، لا فقط بين الدال والمدلول عموما، كما كان قد قال دي سوسير، بل بين الدال/ المصطلح، وما اصطلح عليه، فنفتح باب التسمية الاصطلاحية على مصراعيه، على نحو يسمح لنا بتغيير أسمائنا كلما شعرنا بأن جديداً قد طرأ، وأن علاقتنا بالآخر قد باتت تفرض علينا ذلك، وهو ما لا يسمح به عقل، ولا يقبل به منطق.

* أستاذ في كلية اللغات -جامعة صنعاء.

علــى أن ما يؤكد ضياع النقد، وغياب الهوية أو الماهية المحددة له، فضلاً عن غياب المفهوم الجامع للنقــد، أنك لو أعدت طرح ســؤال الماهية: ماهية النقــد، من جديد، على أي مــن نقادنا المعاصرين، على كثرتهم، وسألت أحدهم: ما النقد؟ لما حصلت مــن أي منهــم على إجابــة محددة على ســؤالك، تتضمــن تحديداً دقيقاً لمــا يكونه النقد. ليس هذا فحســب، بل إن أياً من النقاد لا يســتطيع أن يقدم لك رؤية واضحة أو محددة لما يكونه النقد في وعيه هو على الأقل. ما يسمح لنا بالقول -وإن بشــيء من الأسى والحسرة- إن النقد اليوم لــم يعد فناً معلوماً من فنون القول، بل غــدا فناً مــن فنون القول غيــر معلوم؛ غير معلوم الكُنْه أو الحقيقة أو الصفة.

لقــد صرنــا اليــوم غير قادريــن -في زمن العولمة الذي بدأ يضرب في عمقنا بقسوة- على التمييز بين شــيء وشــيء، أو على إعطاء الأشياء وصفها الذي تستحق؛ ما أدى إلى اختلاط الأوراق، وضياع الكثير من الحقائق.

لقد صرنــا اليوم غــير قادرين – في زمــن العولمة الذي بدأ يضرب في عمقنا بقســوة– علــى التمييز بين شيء وشــيء، أو على إعطاء الأشــياء وصــفها الذي تستحق؛ مــا أدى إلى اختــلاط الأوراق، وضــياع الكثــير مــن الحقائــق.

وحتى نتمكن من الإسهام في إعادة بناء مفهوم جامع للنقد، علينا أن ننطلق من طرح سؤال الماهية المتعلق بالنقد من جديد. فما النقد إذن؟

النقد دليل لساني

وهنا نســتطيع أن نقول: إن النقد دليل لساني، لا يزال مفهوماً؛ لأنه مما دوِّنه لساننا في معاجمه، فقرأنا، ولا نزال نقرأ في تلك المعاجم:

١- "**النقــد خــلاف النســيئة**"، وهذا يقتضي أن النقد عبارة عن الكلام التبادلي الفوري (الحواري)، أي الــذي يتبادله المتكلّم القــارئ (الناقد) مع كلام النــص المقــروء لحظة اتصالــه به ومكالمتــه إياه، بصورة فورية مباشرة؛ لحظة نصغي لكلامه، ونلقي إليه بكلامنا.

٢- "**النقــد تمييــز الدراهــم**". وهذا يقتضي أن النقد كلام ينطوي -وإن ضمناً- علــى حكم قيمة إزاء النص الذي يستهدفه الناقد القارئ بفعلــه القرائي النقــدي. فهو إذن كلام مختلــف، بحكم أنــه يتكلّم/ يظهــر اختــلاف النــص المنقــود، وتميــزه عن كل نص ســواه. بمعنى أنــه يظهر فــرادة النــص المقروء وتفرده، خصوصيتــه التي بها كان ذاته الخاصة، ولم يكن غيره.

٣- "النقد إعطاء النقد". وهذا يقتضــي أنــه الكلام الذي من شــأنه أن يكشــف حقيقة الوجود النصي للنص المقروء/ المنقود. على معنى أنه يعطيه قيمته الحقيقية التي يســتحقها، وهي القيمة التي يكشــف عنها خلال فعل القراءة النقدية.

٤- "**النقــد النقــر بالإصبع على الجــوز**". وهذا يقتضــي أنه الكلام الباحث عــن معنى، وليس هو الكلام الذي يمنح النص معناه. أو لنقل: إنه الكلام الباحث عن نصية النص، أو عما به تتحقق نصيته.

إنه الكلام الذي به أو من خلاله نبحث عما به كان النص نصاً مختلفاً.

٥- "**النقد أن يضرب الطائر بمنقاره (منقاده) في الفخ**" بحثاً عما عنه يبحث الطائر/ الناقد، وإليه يتطلع خلال فعله النقدي، أي بحثاً عن المعنى الهارب الخاص الذي ما ينفك يبحث عنه الناقد، ويتطلع إليه. وهذا يقتضي أنه الكلام الذي يخترق سطح النص أو ظاهره إلى باطنه؛ بحثاً عما ينطوي عليه في الداخل من معنى خاص، أو بحثاً عن حقيقة معناه، أو عن حقيقة المعنى النصي (الكلي/ العلائقي) الكامن في نسيجه. وهذا يقتضي أن الفعل النقدي ليس فعل بحث عن المعنى الظاهر أو السطحي، أي الذي يطفو على سطح النص، ولكنه فعل بحث عن المعنى الباطن الذي يسكن عمق النص (معنى المعنى).

على أن في هذه العبارة إشارة إلى طريقة أخرى من طرق اكتشاف القيمة في النص، هي طريقة اختراق الشكل المرئي للنص إلى اللامرئي، والبحث في ثناياه أو في طبقاته عن المعنى الباطن، أو عما يعطي للنص معناه، أو قيمته النصية الحقيقية.

٦- "**النقد الوازن من الدراهم**". وهذا يقتضي أنه الكلام الذي يتبادله الناقد مع نص الكلام المنقود كي يعطيه قيمته الحقيقية بشكل فوري، بحكم أنه ينطوي، وإن بصورة ضمنية، على حكم قيمة على النصوص، لأنه يحاورها من داخلها، ويكتشف نصيتها من أعماقها؛ لذلك فهو لا يزيف وعينا بالنصوص، بقدر ما يضعنا وجهاً لوجه أمام الحقيقة النصية لكل نص على حدة.

٧- "**النقد لدغ الحية**"[1]. وهذا يقتضي أنه الكلام الفاعل أو المؤثر في كلام غيره، أو في كل كلام نتعرض له بالنقد أو بالقراءة والتحليل النقدي، بدءاً بكلام النص المنقود. لذلك فالنقد، وفق هذا، هو الكلام المتضمن فعلاً فاعلاً في الكلام وفي المتكلمين وفي اللغة، في آن معاً.

٨- "**النقد اختلاس النظر**" نحو الشيء (النص المنقود)، وليس تركيز النظر وحصره -فقط- في النص. وهذا يقتضي أنه الكلام الذي يجسد حضور المتكلّم الناقد لحظة الشهود الكلي لنصية النص، ويعبر، في الوقت نفسه، عن رؤية كلية للنص. أو لنقل: إنه ينطوي على الرؤية الخاصة أو الشخصية بالناقد. أعني أنه يجسد رؤيته الخاصة لما عليه النص المنقود، أو لما ينطوي عليه من مقومات نصية ممكنة.

وفي هذه العبارة إشارة ثانية إلى طريقة أخرى من طرق اكتشاف الناصّ الناقد نصية النص المنقود، هي الطريقة التي عبر عنها باختلاس النظر، أو عن طريق الرؤية الكلية أو المزدوجة للنص المنقود، التي تعني النظر إلى النص المنقود، من زاوية نص أو نصوص أخرى (من زاوية نص القراءة النقدية السابق في الوجود على وجود الناقد/ القارئ، من جهة، ومن زاوية نص القارئ الحلم، من جهة أخرى، على نحو ما سنوضح ذلك لاحقاً). وهذا يقتضي النظر لكل شيء في النص المقروء، أو للمعنى الجزئي من زاوية شيء آخر مماثل له أو مناقض أو مجاور... إلخ.

لذلك نجد من سمات الكلام النقدي عموماً، انطلاقاً من كل ما سبق:

- أنه فعل لغوي مركب، مشروط بالتبادل

الفوري الإيجابي. إنه حوار بين طرفين متكافئين[٢] حاضرين كل منهما في حضرة الآخر.

– النصيــة أو التناصيــة. أي أنه كلام يجســد تناص الناصّ الناقد مع النص المنقود، أو مع جملة نصــوص، من بينهــا، على الأقل، النــص المنقود/ المقــروء، إضافة إلى نص القراءة النقدية الســابق في الوجود على وجــوده القارئ، وكذا نص القارئ الحلم. فهو إذن كلام نصي يظهر الاختلاف والتفرد بامتياز؛ اختلاف وتفرد المتكلّــم الناقد، واختلاف وتفرد كلامه النقدي، إضافــة إلى اختلاف وتفرد كلام النص المتكلّم فيه، ومن خلاله.

– التبادليــة الفوريــة (الحواريــة). وهذا إنما يرجــع إلى أنه كلام يتكلمه أكثر من متكلّم/ طرف، فهــو مزيج من كلام ثلاثة نصوص، على الأقل، كما سنلاحظ ذلك لاحقاً.

– الكليــة أو التعددية: تعددية الكلام وتعددية المتكلّم.

– القِيَمِيّة: أنه يتضمن حكماً بالقيمة.

– التجاوزية (الاختراقية): تجاوز ظاهر النص إلى باطنه، وهذا يتطلب الحفر والتفكيك، بحثاً عن المتعدد مــن معاني النص. لذلك فهــو (أي النقد) عبارة عن:

● كلام يتكلم حضــور الكائن المتكلم الناقد في حضــرة النص المتكلّم عنه، وفيه. وهذا يقتضي أنه يتكلم العلاقة، لا الســلطة؛ علاقــة الناقد القارئ بنصه المنقود/ المقروء، لا سلطته عليه، ومصادرته لحقــه في الوجــود/ التكلّم، وهي علاقة تجســد اتصاله المباشر به، ومعايشته إياه، ومن ثم التعرف من الداخل على ما ينطوي عليه النص من مقومات نصية.

● إنه الكلام الذي يعطي النصوص قيمتها، ما يجعله يبدو –بصورة دائمة– بمثابة المعادل الرمزي للنصوص.

هذا عن النقد دليلاً لسانياً (في الذاكرة اللغوية لمستعملي اللغة).

النقد مفهوماً

أما عن النقــد مفهوماً، أو ماهية، أو دلالة، أو شكلاً من أشكال الوجود اللغوي؛ أي بوصفه فناً من فنون القول، وضرباً من ضروب الكلام على الكلام، كمــا كان أبو حيــان التوحيدي قد قــال؛ فلم يعد –في نظري على الأقل– مفهوماً، وأخشى أن يصبح غير قابل للفهم. أقول هذا، لأن النقاد، في نظري، وهم من نعوّل عليهم فــي عملية الإفهام والتفهيم، قد توزعوا بين فريقين:

١– فريق آثر التجريب على الفهم.

٢– وفريــق آثر الفهم علــى التجــريب، ولكنه –فيما نعتقد– أخطأ الطريق إلى الفهم.

علــى أن قائلاً قد يقول، تعقيبــاً على مقالتنا هذه: لكــن هل يمكن الفصل بين التجريب والفهم؟ أليس التجريب هو الطريــق الصحيح إلى الفهم؟! أليــس تجريب النقد هو الطريق الصحيح إلى فهم ماهيــة النقد، أو بالأحرى إلــى بناء ماهيته؛ فلكي نفهم حقيقة شــيء ما، شكل وجوده الذي هو عليه، علينــا أن نُجرّبــه؟ أتُرَاكَ نسـيتَ أم تناســيت أن التجريــب، حديثاً، قد بات هو الطريق الوحيد إلى الفهم، وأن الفهم الحقيقي، من ثم، لم يعد إلا هذا الفهــم القائم على التجريب، وليس على أي شــيء آخر غير التجريــب؟! أم تُرَاكَ تريــد بالفهم هنا،

الفهمَ المجرد الذي يؤسس لمعرفة نظرية مجردة، لا الفهم المجسد الذي يؤسس لمعرفة تجريبية (يقينية) تطبيقية مجسدة؟ ماذا تعني بالفهم هنا؟ وكيف أخطأ -في رأيك- الفريق الثاني الطريقَ إلى الفهم؟ ما الطريقُ الصحيح إلى فهم ماهية النقد، من وجهة النظر هذه التي تطرحها؟!

وهنا نقول: إننا نعتقد أنه ما من طريق إلى الفهم الصحيح للنقد إلا طريق واحد وحيد، هو التجريب النقدي؛ لكن ليس بمفهومه العام أو الشائع: الآلي أو التقليدي الذي ينحصر خلاله جهد المجرِّب ونشاطه في اتجاه واحد، ووفق شروط محددة سلفاً؛ وإنما نعني: التجريب بمعناه الدقيق والعميق، الكلي والشمولي. أعني التجريب بمستوييه: السطحي والعميق، تجريب؛ "نقد" النصوص، من جهة، وتجريب "نقد نقد النصوص"، من جهة ثانية، ووفق شروط التجريب المعتبرة في كليهما.

> التجريب، بمستوييه: السطحي والعميق، لا يكون -في اعتقادنا- إلا وفق منظور (دينامي) خاص بالكائن المجرّب، أي وفق جهاز أدواتي مفهوماتي، يجب أن يكون قد بناه الكائن المجرّب خلال مسيرة حياته النقدية التجريبية السابقة.

على أن التجريب، بمستوييه: السطحي والعميق، لا يكون -في اعتقادنا- إلا وفق منظور (دينامي) خاص بالكائن المجرّب، أي وفق جهاز أدواتي مفهوماتي، يجب أن يكون قد بناه الكائن المجرّب خلال مسيرة حياته النقدية التجريبية السابقة. أعني خلال خبرته التجريبية السابقة التي بناها لنفسه، فصارت تشكل، بالنسبة له، منظوراً خاصاً به، جهازاً أدواتياً معلوماتياً مفهوماتياً.

وهذا يقتضي أن فعل التجريب النقدي الحقيقي مشروط بحضور الكائن المجرِّب حضوراً عينياً مباشراً، في حضرة النص المجرَّب قراءته، وتجريب قراءته وفق شروط التجريب الخاصة والعامة، في آن معاً، أي وفق نظام دينامي للتجريب النقدي، هو عبارة عن مزيج من الخبرة النقدية الخاصة والعامة.

فالتجريب النقدي إذن عبارة عن خبرة اتصال مباشر بالنص المنقود. أو لنقل إنه خبرة قرائية مشروطة بحضور القارئ/ الناقد في حضرة ثلاثة نصوص على الأقل:

١- في حضرة النص المقروء: الآن/ هنا.

٢- وفي حضرة نص القراءة النقدية السابق في الوجود على وجود القارئ الناقد، الإنّي، أي المتحقق الآن/ هنا، لحظة ممارسته فعل القراءة النقدية للنص بمفهومه الأول.

٣- وفي حضرة نص القارئ الحلم.

وهذا يقتضي أن التجريب النقدي الحقيقي المنتجَ للمعرفة النقدية الحقيقية بالنصوص لا يقام في الفراغ، ولا ينطلق فيه من منظورات نقدية جاهزة (أكانت خاصة بالناقد أم بغيره) إلا أن يكون

الهدف من العملية النقدية برمتها، التعليمَ أو مجردَ نقل المعرفة النقدية الجاهزة إلى الآخرين.

لذلــك نقول: إن التجربة، في أبســط معانيها، عبارة عن خبرة خاصة بالأشياء التي نجربها، وهي خبرة نكتســبها خلال علاقتنا المباشــرة الخاصة والعامــة بتلــك الأشــياء، نبني نظامهــا الخاص، ونؤســس خلالها لمنظورنا الخاص. وهو ما يتطلب منا القيام بعملية مراجعة دائمة لأدواتنا وإمكاناتنا (لجهازنا الأدواتي المفهوماتي المعرفي) كلّما شعرنا أنه قد حصل تطور في دلالة تلك الأدوات والمفاهيم التي ينطــوي عليها الحقل المعرفــي لعملنا، أو أن أيّــاً منها قــد تعرض لهزات عنيفــة أفقدته بعض خصائصــه، أو أســقطت عنه بعــض عناصره، أو أضافــت إليه عناصر جديدة لــم تكن له من قبل، أعني كلما شــعرنا أنه قد حصــل تطور في بنيته، استخداماً ودلالة.

وهــذا يقتضي أن التجريــب النقدي الحقيقي المنتــج للمعرفة النقدية الحقيقية بالنص، لا يكون، في حده الأدنى والضروري إلا:

١- بحضور مجرِّب (بصيغة اســم الفاعل) هو من يمــارس فعل التجريب النقــدي الذي هو، في سياقنا هذا، القارئ الناقد المستغرق بفعل القراءة النقدية.

٢- في حضرة مجرَّب (بصيغة اســم المفعول)؛ أعني فــي حضرة فعل التجريــب القرائي النقدي نفســه بصورة فعلية، بوصفه فعل انفتاح كلي على كلية العوالم النصية المشار إليها آنفاً.

٣- وفــي حضرة مجرَّب فيه (مــادة تجريب). ويتمثــل هذا الطرف، بالنســبة للقارئ الناقد، في لغة النصوص المجرب قراءتهــا، أو في ملفوظاتها

> التجريب النقدي الحقيقي المنتجَ للمعرفة النقدية الحقيقية بالنصوص لا يقام في الفراغ، ولا ينطلق فيه من منظورات نقدية جاهزة (أكانت خاصــة بالناقد أم بغــيره) إلا أن يكــون الهدف من العملية النقدية برمتهــا، التعليــمَ أو مجــردَ نقل المعرفة النقدية الجاهزة إلى الآخرين

الواقعية والممكنة.

٤- وفي حضرة نظام التجريب، تجريب القراءة النقدية التجريبية، المتجسد في نص القراءة السابق في الوجود على وجود المجرّب القارئ.

٥- إضافة إلى الحضــور في حضرة مقصدية القــارئ المجــرب، بوصفه ما يهــدف إليه المجرّب مــن وراء عملية التجريب النقــدي القرائي برمتها (وتتمثــل هذه المقصدية في تجســيد نص القراءة النقدية الحلم، أو هكذا يفترض).

وهنا نقول: إن "تجريب القراءة النقدية للنص" يقتضي الاتصال المباشــر بالنص، والنظر إليه من ثلاث زوايا رئيسة:

١- من زاوية ما يكونه هذا النص في ذاته أولاً. وهــذا يقتضي احترام النص المنقــود/ المقروء في ذاته، والاعتراف بحقه في الوجود، كما هو في ذاته، لا كما نحن، أو كما هو في (مرآة) نصوصنا القارئة

التي منها ننطلق، وعلى ضوئها نقرأ. ما يحتم علينا محاورتــه والإصغاء لكلامه، أو لما يقول، وفق نظام القــول الداخلي الخاص بــه، أو الذي ينطوي عليه هو نفســه، وتبادل الكلام معه، في الوقت نفســه، بصورة فورية ديمقراطية متوازنة.

٢- ومن زاوية ما يكونه هذا النص (المقروء) في "نقد النصوص" بوصفه نــص التبادل النقدي. أي كمــا هو في نصوص القراءة النقدية الســابقة في الوجــود على وجودنا القارئ الناقد الإنِّي (المتحقق الآن/ هنا لحظة انفتاحنا على النص وقراءته).

٣- ومــن زاوية ما يمكــن أن يكونه هذا النص (المقــروء) في نص الوجود القرائي الممكن. أي كما هو فــي نص القارئ الحلم الــذي يطمح أن تكونه قراءته النقدية التي يؤسس لها، ويطمع أن يجسدها واقعاً معاشاً في حياته الثقافية المستقبلية.

غير أن الســؤال الذي يجب علينا إعادة طرحه هنا تأكيداً لما سبق:

لكن ما الذي يجرب القارئ الناقد في الأصل؟ أو بالأحرى: ما الذي على القارئ الناقد أن يجرب؟ وكيف يجرب؟

وهنــا يمكن القول: إن ما يجرب القارئ الناقد، هو: لا شــيء، ســوى فعل القراءة النقدية، بوصفه فعلاً (لغوياً) فاعلاً في نفســه؛ فعلَه فيما هو فعلٌ فيه (في النــص المقروء/المنقود) وفيما هو فعلٌ به (في نص القراءة النقدية الســابق في الوجود على وجوده الإنيّ) وفيما هو فعلٌ له أو لأجله (في نصنا القارئ الحلم).

على أنه يمكننا، بعد هذا، أن نرصد ثلاث طرق لتجريب فعل القراءة النقدية للنص:

١- طريقة الذهاب← إلى النص (المقروء) وتجريب قراءته كما هو في ذاته، في حضوره العيني المباشر (أي دون تدخــل منا أو دون أن نخضعه لشــروطنا الخاصــة، أو لتحقيق أي مقصدية أخرى تتعلق بنا أو تخصنا، وإن كان هذا لا يمنع، أو يحول بالأحرى، دون خضوعنا وإياه لشروط مقروءاتنا السابقة التي يمليها أو يفرض منطقها وضعنا السسيوثقافي، أو ما نســميه بـ"نص القراءة/ البرمجة» الســابق في الوجود على وجودنا القارئ).

على أنه يمكن القول: إن من شأن هذه الطريقة (الســلبية) في تجريــب قراءة النصــوص، أنها لا تضيف شــيئاً جديداً إلى النص المقروء، ولا يتولد عنها نص آخر جديــد يمكن أن يعتد به في عملية قراءة النصوص. ما يعني أن عملية التجريب القرائي هذه لا تؤسس لنص جديد في قراءة النصوص، أو في تجريب قراءتها؛ بل من شــأنها أن تكرس واقع الحال النصوصــي كما هو، ولا تعمل على زعزعته سعياً إلى خلق واقع بديل ينهض من أنقاضه.

٢- وطريقــة الإيــاب ← من النــص (المقروء)، وتجريــب قراءته، كما نحن الآن/ هنا في حضورنا العينــي المباشــر، أي وفق شــروطنا الخاصة في القراءة، أو وفق شروط نصنا القارئ، بوصفه نص القراءة الحلم الذي نتبادل الســكنى وإياه، ويحاول كل منا فرض شروطه على الآخر.

٣- وطريقــة الذهاب ← إلى النــص (المقروء) والإياب← منه، في الوقت نفســه، لتجريب قراءته، كمــا هو في ذاتــه، وكما نحن في ذاتنــا، في الآن نفسه.

والطريقة الأولى في تجريب فعل قراءة النص

هــي طريقة الســقوط←في عالم النــص المقروء، وتجريــب قراءته كما هــو في ذاتــه. والثانية هي طريقــة التعالــي ← على النص المقــروء، وقراءته كما نحن في ذاتنــا. والثالثة هي طريقة العلوّ↑في النص المقروء، وقراءته كما هو، وكما نحن، في الآن نفسه.

على أن من شــأن الطريقة الأولى أنها تقتضي حضورنــا في حضــرة النص المقــروء، كما هو في حضــوره العيني المباشــر، والاســتجابة الســلبية لشــروطه كاملة. وهذا يقتضي قراءته وفق قواعد القــراءة الخاصــة بــه التــي يمليها منطــق بنائه الداخلي والخارجي. لذلك فهذه القراءة (الحرفية) تصبــح بمثابة إعــادة إنتاج للنــص، لا تضيف إلى النص جديداً، ولا تؤســس لنــص جديد في قراءة النصوص؛ لذلك فهي قراءة (عاقر) غير منتجة.

أما الطريقة الثانية فتقتضي استحضار النص المقــروء، وجعله حاضراً في حضرتنا كقراء، أو في حضرة نصوصنــا القارئة، بحيــث يصير (النص) جــزءاً من إنيّتنــا القرائية، أو مــن حضورنا الإنّيّ القرائي، ما يفضي إلى اســتلابه بشــروط قراءتنا الخاصة، أو بشروط نصنا القارئ.

أما الطريقة الثالثة فتقتضي أن نتبادل الحضور بيننا وبين النص الذي نجرب قراءته، بحيث يصير كلّ منا حاضراً في حضرة ذاته، وفي حضرة الآخر، في الوقت نفسه، وهو ما يفضي إلى نوع من القراءة الكلية المركبة (المنتجة) أو المؤسّسة لنص جديد في القراءة النقدية.

لذلك فالطريقة الأولى من شانها أن تسهم في بناء الكينونة الخاصة بالنص المقروء. في حين تسهم الطريقة الثانية في بناء كينونتنا الخاصة (المتعالية علــى واقع النصوص التي نقرؤهــا). أما الطريقة الثالثة فمن شأنها أن تسهم في بناء الكينونة الكليّة الخاصــة بكلّ من الكائن النــاصّ (القارئ) والنص (المقروء) على السواء.

ثلاثــة آفــاق لتجريب قــراءة النصــوص إذن: أفق الســقوط في عالم التجربة القرائية النقدية، حيث غياب القارئ المجرّب وتبعيته لعناصر العالم النصي التي يجرب قراءتها، وأفق التعالي على عالم التجربة القرائية النقدية، وأفق العلوّ في عالم تلك التجربة وعليه.

وإذا عُلم هذا وتقرر، فإن الســؤال الذي علينا طرحه على تجربة النقد العربي المعاصر بمستوييه النظري والتطبيقــي، هو: هل انطوت تجربة النقد العربــي، فــي عمومها، علــى مقومــات التجريب النقدي في حدها الأدنى، التي أشــرنا إليها آنفاً؟ هل توافر فــي العنصر الأول، فــي الفاعل الناقد في هذه التجربة، شــرط الفاعلية (أعني شــرط التجريــب النقدي الحقيقي القائــم على الاتصال الحي المباشر بما هو فاعل فيه، وبه، وله أو لأجله)؟ وهل توافر في فعله النقدي التجريبي شرط الفعلية (أعني شرط التأثر وإحداث الأثر في المادة النصية المجرب عليها، على الأقل)؟

وهنــا يمكن القــول: إن ما نأخــذه على نقادنا بعامة، أنهم قد انقســموا في جملتهم -في مسألة التجريب النقدي، وكما سبقت الإشارة- إلى فريقين أو ربما إلى ثلاثة:

- فريق يقول إنه يجرب «نقد النصوص».
- وفريــق يقــول إنــه يجــرب «نقــد نقــد النصوص».

– وفريق ثالث يقول إنه يجرب الاثنين معاً.

على أنــه يمكن القــول: إن نقادنــا العرب قد انقسموا –في الواقع وبحسب ما غلب عليهم– إلى فريقين فقط:

– فريــق غلــب عليــه محاولة تجريــب "نقد النصوص".

– وفريــق آخر غلــب عليه تجريــب "نقد نقد النصوص".

ويأتي في طليعة هذا الفريق، على سبيل المثال، الناقد والمفكر السعودي الدكتور عبد الله الغذامي، الذي جرب "نقــد النصوص" إضافة إلى "نقد نقد النصوص"، فــكان موفقاً أيما توفيــق في الأولى، وقــد خانــه التوفيق في الثانية؛ لا لشــيء إلا لأنه قد انطلق في عملية تجريب نقد النقد –كما تجلى ذلك بوضــوح في كتابه الفذ: «النقد الثقافي"– من الذاكــرة الاصطلاحية (الثقافية) في "نقد الآخر". لقد أراد –كما لاحظنا ذلك في موضع آخر[٣]– أن يؤســس لمنهج في "نقد نصــوص" الثقافة العربية، ذاكرتــه، في الجملة، غير عربية؛ فأنت لا يمكن أن تؤســس لمنهج في نقد الثقافــة، ثقافة أي أمة من الأمم، ما لم تســتند إلى ثقافة تلك الأمة نفســها، أو على الأقل إلى ما أسماه الدكتور الغذامي نفسه بـ"الذاكرة الاصطلاحية" لتلك الأمة.

علــى أنــه بالعودة إلــى موقف نقادنــا العرب من مســألة التجريب عموماً، نقــول: إن ما يجمع بــين الفرقاء جميعاً، ســواء مَنْ جــرّب منهم "نقد النصــوص" أم مَنْ جرّب "نقــد نقد النصوص"، أن الفريق الأول الذي جرب نقد النصوص، نصوصنا العربيــة، انطلاقــاً مما يكونــه النقد فــي ذاكرة الآخــر الاصطلاحية، أي انطلاقاً مما يكونه النقد في"نقد نقد" الآخر لنصوصه المكتوبة بلغته، وليس انطلاقاً مما يكونه النقد في ذاكرتنا الاصطلاحية المجــرب فيهــا ومن خلالهــا، أو في "نقــد نقدنا" نحن؛ فهو يجرب نقد النصــوص: نصوصنا (على الأقل كونها قــد كتبت بلغتنا) وفــق منظور جاهز للتجريــب، أو لنقل: وفق منطــق التجريب الجاهز عند الآخر (محاكاة تجربة الآخر في نقده/ قراءته لنصوصه).

وهذا يقتضي أن نقاد هــذا الاتجاه لم يجربوا "نقد النصوص" في الحقيقة، بل حاكوا تجربة الآخر في "نقده لنصوصه". هذا عن الفريق الأول.

أمــا الفريــق الثانــي الــذي جرب "نقــد نقد النصوص" فحاله لا يختلف كثيراً، في هذه المسألة، عــن الفريــق الأول، من حيث أنه قــد أخذ يجرب "نقد نقدنا" العربــي، انطلاقاً من تجربة "نقد نقد الآخر"، أو قــل: وفق منظور جاهــز لـ"نقد النقد" أخذه عــن الآخر. أعني أنه قــد أخذ منهج الآخر في "نقد نقده"، جاعلاً منه منهجاً لتجربته في نقد نقدنــا العربي، وكأنه بهذا قد أخذ يجرّب ما جرّبه الآخر بأدواته، ووفق منظوراته، وبطريقة التجريب نفسها.

وهذا يعني أن شرط التجريب النقدي الحقيقي منعــدم عنــد الفريقين كليهما. وإذا انعدم شــرط التجريــب النقدي، انعدم شــرط الفهــم (العلمي) المجرّب للنقد عند كليهما.

وهذا يعني، في المحصلة النهائية، أن الفريقين لم يجربــا النقد علــى وجه الحقيقــة؛ فلا الأول جرب "نقد النصــوص"، ولا الثاني جرب "نقد نقد النصوص"، بل كلاهما جرب محاكاة التجريب عند

الآخــر؛ الأول جرب محاكاة الآخر في "نقد نصوصه"، والثانــي جرب محاكاة الآخر في "نقد نقده" لنصوص التجريب النقدي.

وهذا يقتضي أن كليهما لم يفعل -نقدياً- بل انفعل، ولم يشــارك في الفعل النقدي بمســتوييه: السطحي والعميق، اللغوي والتاريخي، بل اســتقل بفعله، منفصلاً عن عالم الفعل الحقيقي الفاعل في حياتنا الثقافية والتاريخية على السواء.

الهـوامــش:

(١) ينظر: مادة «نقد» في القاموس المحيط.

(٢) مــن حيــث الإمكانية والقدرة. أي من حيث أن لدى كل طرف ما يعطيه أو يتبادله مع الطرف الآخر، ومن حيث قدرة كل طرف على التأثير في الطرف الآخر، وإقناعه بشروطه.

(٣) الحميــري (عبد الواســع)، «اتجاهات الخطاب النقدي وأزمــة التجريب» الفصل الخامس: النقد الثقافي وســلطة الثقافة- قراءة في تجربة الغذامي النقدية، ١٠٨.